الباب الأول

الفصل الأول

الإلحاد

الإلحاد: مفهومه وأهدافه.

الغزو الثقافى: أغراضه، ووسائله، ورد فعل الفكر الإسلامى إزاءه.

مفهوم الإلحاد:

إذا أردنا عبارة شديدة الاختصار لمفهوم الإلحاد قلنا هو: إنكار المعلوم من الدين بالضرورة.

وإذا أردنا شرحا لهذه العبارة قلنا: إن المعلوم بالضرورة بوجه عام، هو المعلوم الذى لا يحتاج فى إثباته إلى دليل. ومثاله فى الرياضيات: قولك: إن الواحد نصف الاثنين، فإذا قلت ذلك لصاحبك لم يقل لك: هات الدليل، ومثاله فى التربية الوطنية قولك: القاهرة عاصمة جمهورية مصر العربية، ومثاله فى السياسة الدولية: قولك: إن الاتحاد السوفيتى عضو فى مجلس الأمن.

وإذن فالمعلوم من الدين بالضرورة هو كل أمر لا نحتاج فى إثبات وجوده فى الدين إلى دليل، كقولك: إن الإسلام يدعو إلى الإيمان بالقرآن كتابا منزلا، وإلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، أو كقولك: إن كلمة "قل" هى أول كلمة فى سورة الإخلاص. وأن الوقوف بعرفة ركن فى أعمال الحج.

وإذن فالإلحاد هو إنكار أمر موجود فى الدين لا نحتاج فى إثبات وجوده فيه إلى دليل، كبر هذا الأمر كالقول بوحدانية الله، أو صغر كالقول بغسل الوجه فى الوضوء، وذلك لأن إنكار أمر من هذه الأمور يصعد إلى مرتبه الكفر: لأنه يعنى تكذيب الله أو تكذيب رسوله، وهذا أقصى درجات الكفر.

ميادين الإلحاد

فى الفلسفات الحديثة والمعاصرة من جدلية مادية وبراجماتية ووضعية ووجودية، دعوات صريحة إلى الإلحاد.

وحول المنهج العلمى تنسج أوهام من الإلحاد باسم إنكار كل ما لا يخضع للتجربة وباسم التطور الذاتى وحتمية قوانين الطبيعة وعدم قابلية المادة للفناء.. الخ.

وفى التنظيم الاجتماعى سحابات من الإلحاد: حيث تقوم بعض الدعاوى فى هذا المجال على إنكار الدين واعتباره طورا متخلفا من أطوار التقدم الاجتماعى، أو إنكار دور – على الأقل – فى عملية التنظيم الاجتماعى، وقطع علاقته بالسياسة أو علاقته بالأخلاق.

وفى قضايا التشريع نزوع إلى الإلحاد: حيث يهاجم الدين فى نظرته إلى الرق وإلى تعدد الزوجات وإلى "قوامة الرجل على المرأة" وزيادة نصيبه على نصيبها فى الميراث وفى عقوباته التى يقررها فى جرائم السرقة والزنا والقتل.

وفى تدوين التاريخ تيارات من الإلحاد: حيث يقدم الدين على أن نتيجة لصراع الطبقات، ومظهر من مظاهر التطور الاقتصادى: يصنف فيه الصحابة إلى يمين ويسار، ويقدم فيه رسول الله على أنه رسول لقيمة من قيم التطور الاجتماعى كالحرية أو غيرها من القيم الإنسانية، وتقدم الأديان بعامة على أنها السبب الأصيل فيما حدث من الحروب على مر التاريخ.

وفى أساليب التربية نزوع إلى الإلحاد: فالفرائض الدينية تخضع للحرية الفردية، والحرية قيمة يعمل بها إزاء عدد من السلطات منها سلطة الدين، والتجربة أسلوب لتكوين الشخصية يمارس حتى بالنسبة للمحرمات. والترفيه عن النفس وتفريغ الكبت الجنسى بالاختلاط الخليع أصل من أصول التوجيه التربوى.

وفى فنون الأدب إشارات إلى الإلحاد: حيث توجه الاحتجاجات الصارخة ضد القدر، وتصور بعض الشخصيات الروائية وهى تبحث عن الله بحثا مضنيا فاشلاً، وحيث تقدم شخصيات رجال الدين والشخصيات العادية المتدينة فى صورة ممجوجة تثير التهكم والسخرية، وتقدم الأديان بعامة على أنها فشلت فى حل مشاكل الإنسان.

وفى بعض البحوث الإسلامية ذاتها تطلعات إلى الإلحاد: إذ ينكر دور السنة فى التشريع، ويقدم القصص القرانى على أنه نوع من الفن الروائى لا يعبر عن الواقع التاريخى، وتدرس القراءات على أنها نوع من الاجتهاد البشرى، وحيث تقوم الدعوة إلى إغفال النصوص المتعلقة بالجزيئات والاكتفاء بالمبادئ العامة التى يرضى عنها العقل ولا تختص بدين من الأديان.

وفى تكييف العلاقة بين الإسلام والأديان الكتابية تورط فى الإلحاد: حيث يسوى بينها جميعا فى الإيمان بالله. ويسوى بين الولى هنا والقديس هناك.

وفى ميدان العادات والأخلاق: يحاول البعض فى وسائل الاتصال الثقافى والجماهيرى أن يلفتوا النظر إلى مصدر للأخلاق الحميدة - كالصدق والوفاء والاتقان - فى غير الإسلام كالديانات المصرية القديمة، متناسين ما فى تلك الديانات من وثنية ممقوتة مرتبطة بأخلاقياتها.

هذه وتلك تيارات فكرية: تدعى غالبا الاستناد إلى العلم أو إلى المنهج العلمى. أما عن الأشخاص الذين تتمثل فيهم تلك التيارات فكثيراً ما نجد الذين تتمثل فيهم تلك التيارات خالصة حيث يأخذون حكمها خالصا.

لكن الصعوبة تكون فى كثيرين نجد فيهم خليطا عجيبا من الإيمان والإلحاد الذى تمثله واحدة من تلك التيارات.

وتقل الصعوبة فيمن يكون من هؤلاء عاميا أو شبه عامى أو نصف مثقف حيث ينبغى أن نرجح فى شأنه جانب الإسلام، ونعذره فى جهله ببعض ما فى هذه التيارات من تناقض مع الإسلام، وذلك إلى أن نبين له هذا التناقض.

ولكن المدهش حقا أن نجد فى بعض المستويات العليا من المثقفين جمعا بين ظاهرة من ظواهر الإيمان وبين فكرة من التيارات الإلحادية تلك أو غيرها.

وعلى سبيل المثال: نجد واحدا من هؤلاء يصلى ويقرأ القرآن فى موقف من غير مواقف الرياء أو المداهنة، لكنه فى مناقشة جادة يصرح بأن حديث القرآن عن الجنة ما هو إلا تعبير عما رآه محمد صلى الله عليه وسلم فى صباه من روضات الشام.

وأخر يصلى كذلك ويصرح بأن كثرة حديث القرآن عن موسى عليه الصلاة والسلام ما هو إلا تعبير عن حالة نفسية سيطرت على محمد صلى الله عليه وسلم إزاء موسى؟

وأخر يصلى أيضا ويصرح بأن الحضارة الإسلامية محكوم عليها بالفشل فى العصر الراهن لأنها حبيسة الكلمة "وبعبارة أخرى لأنها مقيدة" بالقرآن".....

هذه نماذج غريبة حقا، لأن أداءهم للصلاة ينتسب للإسلام. أما أفكارها تلك فهى إلحاد محض؟!

فكيف جمع هؤلاء بين الأمرين المتناقضين؟

وأى هذين الأمرين هو الذى يعبر عن حقيقتهم الداخلية؟

لست أميل هنا إلى الحل السهل الذى يدمغ هؤلاء بالنفاق فى ممارستهم لبعض مظاهر التدين بالإسلام، ولكنى أجزم بأنهم يجمعون فى ضمائرهم الممزقة بين النقائض، وأنهم ضحية عصر البلبلة الثقافية التى يمر بها المجتمع الإسلامى.

ضوابط الإلحاد:

إننا إذ نتعرض لبيان ضوابط الإلحاد التى تحدد لنا بعض الصور العملية أو التطبيقية لمفهومه الذى ذكرناه نود أن نحذر بادئ ذى بدء من التوسع فى الاتهام بالكفر.

لقد كان من أشد الأمور إثارة للأسى والأسف ما وجدناه فى تاريخ الفكر الدينى فى الحضارة الإسلامية من نزعة ملحة عارمة نحو تبادل الاتهام بالكفر[1] يقول الخياط من المعتزلة: ما علمنا فرقه من أهل الملة سلمت من الاتهام بالكفر: هذه الخوارج يكفر بعضها بعضا، وهذه الروافض يكفر بعضها بعضا، وهذه المرجئة

(١) الكفر لغة الستر، وأنما سمى جاحد ربه والمشرك به كافرين لأنهما سترا على نفسيهما نعم الله تعالى، وسترا طرق معرفته على الأغمار، والعرب تقول: كفرت المتاع فى الوعاء أى سترته فيه، وسمى النيل كافرا لأنه يستر كل شئ بظلمته، قال الشاعر: (فى ليلة كفر النجوم غمامها) وسميت الكفارة كذلك لأنها تغطى الأثم وتستره وسمى الحارث كافرا لأنه يستر البذور فى الأرض.

يكفر بعضها بعضا، وهذه أصناف المشبهة يكفر بعضها، وهذه المجبرة فرق مختلفة وبعضها يكفر بعضها... وهذه النوابت فرق مختلفة فى القرآن وبعضها يكفر بعضا.

والإمام الرازى يحكى قولا للعلماء يقضى بكفر المجسمة: "لما أنهم بإنكارهم وجود موجود لا يشار إليه قد أنكروا ذات الله وينقل البغدادى أن الشافعى أشار إلى بطلان صلاة من صلى خلف من يقول بخلق القرآن ونفى الرؤية.

وأن مالكا قال فى المعتزلة: زنادقة لا يستتابون بل يقتلون.

وإذا كان أبو حنيفة قد قرر أنه لا يكفر أحدا بذنب ولا يتهم بالكفر من يرميه به، وإنما يتهمه بالكذب، إلا أنه يضعنا أمام مبدأ دقيق حيث يقرر أن "من قال لا أعرف الكافر كافراً فهو مثله". ولكن التدقيق فى معنى عبارته يبعدنا عن مجال التنابز بالكفر إذا فهمنا المقصود من قوله "... الكافر..." أنه من يظهر كفره ظهوره بينا قاطعا.

وترجع هذه الموجات المتلاحقة المتراكبة من التنابز بالكفر إلى أسباب لم تأت فى منهج الإسلام كما جاء به الرسول ﷺ وإنما جاءت من تغلب النزعة الدنيوية أو الشخصية على هذه الموجات.

وقد نجد فى النزعة الدنيوية: أسبابا اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية[1].

وقد نجد فى النزعة الشخصية: اتخاذ منهج يجعل "النظرية" مقياسا للدين. فيحشره فيها وهو يتأبى عليها، بدلا من أن يجعل الدين مقياسا للنظرية إن كان هناك حاجة للنظرية.

وقد كان على هؤلاء وأولئك أن يحاربوا نزعاتهم وأن يعتصموا منها بتحذير الفكر الدينى تحذيرا صارما من تبادل الاتهام بالكفر، إذ يجعل الخطر ماثلا فوق رأس المدعى والمتهم جميعا، ففى الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) انظر كتابنا "عوامل وأهداف نشأة علم الكلام فى الإسلام".

"إذا كفر الرجل أخاه – أو قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما" وقوله "لا يرمى رجل رجلا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك".

وقوله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمن قال لا إله إلا الله، لا نكفره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل أخر أمتى الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل. والإيمان بالأقدار .. أخرجه أبو داود فى باب "الغزو فى أئمة الجور" من كتاب الجهاد.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز:

"إذا كان عدم تكفير المسلم معدودا من أصل الإيمان لزم أن يكون تكفيره كفرا. وبهذا نطقت أحاديث الصحيحين"[1].

ولست تجد واحة وسط هذا الهجير المهلك إلا فى ظل شجرة السنة.

إذ تجعل المسلم يحاسب نفسه حسابا قاسيا عسيرا قبل أن يوجه اتهاما بالكفر، إلا أن تقوم أمامه على ذلك – لا من النظرية، ولكن من السنة – دلالة قطعية.

ويحصر الإمام البياضى مواضع الإكفار كما يبينها الإمام حنيفة فتكون فى ثلاثة مواضع: نسبة النقص الصريح إلى الله تعالى، وإنكار ما علم من الدين بالضرورة، وتأويل ما علم قطعا كونه على ظاهره.

وهذه الأمور الثلاثة لا تخرج عن أوسطها، يقول الإمام الرازى:

"الكفر عبارة عن إنكار ما علم بالضرورة مجئ الرسول به، فعلى هذا لا نكفر أحدا من أهل القبلة، لأن كونهم منكرين لما جاء به الرسول غير معلوم ضرورة، بل نظرا".[2]

---

(١) المختار من السنة ص ٣٢٣.

(٢) محصلة ص ١٧٥.

وأهل القبلة هم الذين أسلموا على النحو الذى قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إعلان الشهادتين، وأصله ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال" من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا"[1].

ومن التفصيل لهذا الإجمال... والذى نراه لا يخرج عنه، ما جاء فى العقائد العضدية بشروحها على النحو التالى: لا نكفر أحدا من أهل القبلة إلا إذا ارتكب واحدا من الأمور الآتية:-

١- نفى الصانع القادر المختار العليم.

علما بأن "الاختيار" الذى أثبته الفلاسفة ليس اختيارا عندنا، والاختيار عندنا، ما يصح معه الفعل والترك فلا يغنى وصف القادر عنه، إذ القادر قد يضطر إلى الفعل فيفعله بقدرته وليس مختارا، كذلك علم الله الذى تقول به الفلاسفة، لا يتعلق بالجزئيات وهذا غير ما جاء فى العقيدة الإسلامية.

٢- الشرك:

(أ) إما فى وجوب الوجود كالقائلين بالنور والظلمة.

(ب) وإما فى الخالقية كالقائلين بأن فاعل الخير النور، وفاعل الشر الظلمة. لكن لا يصح تكفير المعتزلة لقولهم بخلق العبد أفعال نفسه الاختيارية، لأن العبد ووسائله مخلوق لله. وقد سأل أبو القاسم الأنصارى وهو من أفاضل تلامذة إمام الحرمين عن تكفيرهم فقال:

لا يجوز تكفيرهم لأنهم نزهوه عما يشبه الظلم والقبح وما لا يليق بالحكمة، وسئل عن أهل الجبر فقال: لا يجوز تكفيرهم لأنهم عظموه حتى لا يكون لغيره قدرة وتأثير وإيجاد.

---

(١) انظر شرح الطحاوية لابن أبى العز صـ ٢٩.

(جـ) وإما فى المعبودية كعبدة الأصنام والكواكب والنار والطبيعة والبشر.

٣- وإنكار النبوة: كالبراهمة وأشباههم.

٤- وإنكار ما علم بالضرورة مجىء محمد صلى الله عليه وسلم به: كمن ينكر ركنا من الأركان الخمسة للإسلام، أو ينكر البعث الجسمانى.

٥- أو إنكار أمر مجمع عليه قطعا. كمن ينكر كون الصلوات المفروضة خمسا، أو ينكر عدد ركعات كل صلاة منها، أو ينكر كون كل صلاة منها تؤدى بقيام وركوع وسجود وجلوس على النحو المعروف.

٦- أو استحلال المحرمات بشروط ثلاثة:

(أ) أن يحصل الإجماع على تحريمها.

(ب) أن تكون حرمتها من ضروريات الدين: بحيث يستند الإجماع فيها على دليل قطعى. ويشتهر ذلك.

(جـ) أن يكون الشخص على علم بما تقدم.

وإنه لمن علامات الكفر الدالة على شئ مما تقدم: السجود للصنم، أو للشمس، واحتقار المصحف وإهانه الكعبة، وإكبار زعماء الكفر بما يرفعهم فوق منصب النبوة... من غير إكراه فى كل ما تقدم؛ وما جرى مجرى ذلك من علامات الكفر، وإن لم نعلم كفره باطنا.

وعلى هذا الأساس فهناك جماعات نحكم عليها بالابتداع فى الدين ولا نحكم عليها بالكفر.

١- كالقائلين بخلق القرآن بتأول.

٢- والقادحين فى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بما لا يكفرهم، وأما بما يوجب تكفيرهم فهم يكفرون.

٣- والقائلين بأن الله سبحانه وتعالى جسم بلا كيف، وأما المصرحون بالجسمية المثبتون للوازمها من غير تستر (بالبلكفة) فهم يكفرون.

٤- ومن قال أرى الله تعالى فى الدنيا وأكلمه شفاها، فللعلماء فيه آراء: والأصح أن يناقش: فإذا صرح بأنه يراه جسما تثبت له لوازم الأجسام من غير تستر بـ "بلا كيف"... وأنه يراه رؤية حقيقية فهو كافر.

وإذا صرح بأنه.. بناء على دعوى المكالمة مع الله.. ينزل منصب النبوة فهو كافر. وإذا تستر بـ "لا كيف" وأنها رؤية غير حقيقية، وأنه لا منصب نبوة فى هذه المكالمة، فلا نحكم بكفره، ويدخل فى حكم الابتداع فى الدين. "وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار".... والأصل فيه: أن فى تفكير المسلم خطرا عظيما.

قال الشيخ تقى الدين رحمه الله:

وهى روطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين ومن المنسوبين إلى أهل السنة وأهل الحديث. ثم قال : والحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة إلا بإنكار متواتر من الشريعة على صاحبها أفضل الصلاة. فإنه حينئذ يكون مكذبا للشرع.

وعبر بعض أصحاب الأصول عن هذا بما معناه: من أنكر طريق إثبات الشرع: كمن أنكر ورود مسألة ما فى الكتاب، أو فى السنة أو فى السنة أو فى الإجماع، لم يكفر حتى يعرف، أما من أنكرها بعد الاعتراف بورودها فى طريق الشرع، فقد كفر[1].

درجات من الكفر لا تخرج من الملة:

يقول صلى الله عليه وسلم "سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر" متفق عليه، وقال صلى الله عليه وسلم "لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض" متفق عليه. وقال صلى الله عليه وسلم "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر" متفق عليه. وقال صلى الله عليه وسلم "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن،

---

(١) أنظر لذلك شرح الجلال الدوانى على العقاد العضدية، وحواشيها وأصول الدين للبغدادى، ج٢ ص ٢٨ وما بعدها. بتصرف.

ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" وقال صلى الله عليه وسلم "بين المسلم والكافر ترك الصلاة" رواه مسلم. وقال "من أتى كاهنا فصدقه أو أتى امرأة فى دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد" .وقال :من حلف بغير الله فقد كفر" رواه الحاكم، وقال "ثنتان فى أمتى هما بهم كفر، الطعن فى الأنساب والنياحة على الميت".

وفى تفسير ذلك كله ذهب أهل السنة باتفاق إلى أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية، إذ لو كان يكفر فى مثل هذه الذنوب كفراً ينقل عن الملة لكان حكمه القتل مرتدا فلا يقبل فى القاتل عفو ولى: ولا فى الزانى حد بالجلد، ولا فى السارق قطع ليد وهلم جرا.. وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام، وهم أمام هذه الأحاديث وما يماثلها طائفتان:

طائفة تقول بأن الإيمان تصديق وإقرار وعمل يزيد وينقص، فهؤلاء يقولون فيمن جاءت فيهم هذه الأحاديث وأمثالها: إن كفرهم مجازى غير حقيقى[1].

يقول ابن أبى العز شارح الطحاوية "تجتمع فى المؤمن ولاية الله من وجه وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان. وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر" فالطاعات من شعب الإيمان، والمعاصى من شعب الكفر، وإن كان رأس الكفر الجحود، ورأس شعب الإيمان التصديق"

وإذن فهى كما قلنا درجات من الكفر لا تخرج من الملة.

والأجدر أن يقال:

مرتكب هذه الأمور إما أن يرتكبها مستحلا لها فقد أنكر معلوما من الدين بالضرورة، فيكون ما فعله كفرا صراحا وإما أن يرتكبها مقرا بحرمتها، فكفره

---

(١) انظر شرح الطحاوية ص ٢٢٥ – ٢٢٧.

باعتباره المآل، إن أصر على ارتكاب هذه الكبائر، وداوم عليها، فإن الآثام تتكاثر على قلب العبد مثل الحصير: عودا عودا، حتى يسود فيختم عليه، والرسول باعتبار منصبه فى الدعوة والتربية يعالج نفوس البشر ويلفت أنظارهم إلى ما يؤولون إليه.

طبيعة الإلحاد:

تتضح لنا طبيعة الإلحاد من النظر فى طبيعة التدين، وإذا كانت طبيعة التدين هى الاستقامة مع الفطرة لقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ ....

وأن هذه الفطرة فى الإنسان مساوية لفطرة الله فى الكون لقوله تعالى: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ....

وأن هذه الفطرة ملزمة بالإسلام وحده؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..."...

وإذا كان الإلحاد يتمرد – فى زعمه[1] – على الأديان بوجه عام:

فإن الإلحاد إذن يعنى الوقوع فى مأزق التناقض مع الفطرة الإنسانية خصوصا ومع الفطرة الكونية بوجه عام.

يقول أرنست رينان "إنه من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المعادى – الإلحادى – الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية".

ويقول فيكتور فرانكل "إن الحاجة إلى التدين عنصر دفين فى النفس البشرية، وقد نستطيع أن نخفى على غيرنا شعورنا الدينى، ولكن إذا تعمدنا إخفاءه على عقولنا الواعية وحاولنا أن نساير الاتجاه العصرى فى اعتبار التدين والشوق إلى

---

(١) سنبين فى آخر هذا المبحث أنه ينسج ديانة وضعية.

التعبد من مخلفات العقائد التى ورثناها عن الماضى العتيق، وليست هناك حاجة جوهرية إليها، لتعرضت نفوسنا لصراع داخلى عنيف، أشد خطرا على الأعصاب، والصحة النفسية والجسدية من كبت الغرائز..".

ويقول الأستاذ عباس العقاد "فى الطبع الإنسانى جوع إلى الدين كجوع المعدة إلى الطعام".

والأمر الذى نود أن نؤكده فى هذه الدراسة هو أن الإلحاد فى محاولته الانحراف بالفطرة الداعية إلى الدين الصحيح... لم يتمكن من "الخروج" على الفطرة الإنسانية بالكلية، ومن ثم تورط فى الانحراف بها إلى ديانة جديدة زائفة، وهذا هو الأمر الذى سوف نبينه عند الكلام عن الأهداف التى يستهدفها الإلحاد المعاصر.

وخلاصة القول فى طبيعة الإلحاد – المعاصر – أنه محاولة فاشلة للخروج على الفطرة أدت إلى الانحراف بها.

بواعث الإلحاد:

هناك بواعث كثيرة للإلحاد.

ربما نقول الباعث إليه يتصل برغبة الإنسان فى الانكباب على شهواته حيث يجد فى الدين رادعا له عن ذلك.

وربما نقول إن الباعث إليه يتصل بالرغبة فى الوصول إلى موضع السلطة فى شعب يمثل فيه الدين عنصرا قويا من عناصر المقاومة لهذه الرغبة وربما تقول إن الباعث فيه يتصل بالرغبة فى التخلص من بعض المؤسسات الدينية كالكنيسة أو ما يشابهها.

وربما نقول إن الباعث إليه يتصل بالرغبة فى زعامة فكرية جديدة يحول الدين الصحيح دون ظهورها.

وهذه البواعث كلها قائمة، وقد يبدو لبعض الباحثين بواعث أخرى أكثر تنوعا وأدق تفصيلا.. ولكن الباعث الأساسى فى رأيى الذى ينبغى إظهاره فى هذا المقام

يتضح لنا من النظر فى جوهر الدين. وليس من المبالغة فى شىء أن نقول إن جوهر الدين هو التسليم لله، وبعبارة أخرى "الاتباع" لله. وبعبارة أكثر وضوحا نقول: إن منشأ الدين يأتى كعناية إلهية بالإنسان إزاء شعوره بجهله بطبيعة الوجود وبدايته، وموقع الإنسان فى هذا الوجود، وكجواب إلهى على شوق الإنسان وتطلعه لإزاحة هذا الجهل، وهنا يأتى الدين: يتلقى فيه الإنسان الجواب على تساؤله وتطلعه، ويتبع الإنسان فيه ما يتلقاه عن الوحى.

إن الإنسان بقصوره العقلى يجهل أصول المشكلات التى يواجهها:

مشكلة الوجود: بدايته ونهايته وغايته، مشكلة المعرفة: إمكانها، وطبيعتها وأدواتها، مشكلة القيم: الحق والباطل والخير والشر، والنفع والضر والشقاء والسعادة، وهو مع هذا الجهل يتطلع فى شوق عارم إلى معرفة الحقيقة التى يجهلها.

وعند هذه النقطة يفترق الحال بين المؤمن المتدين بدين الله، وبين الملحد (المتدين – رغم أنفه – بدين وضعى).

فالمتدين بدين الله يتلقى المعرفة والتوجيه من الله مسلما به، متبعا له.

والملحد لا يرضى بهذا التلقى، والاتباع، وإنما يبتدع المعرفة والتوجيه، ويحاول أن يصل إليها بنفسه – مع قصوره – أو أن يصل إليها من غير طريق الله.

وخلاصة القول فى بواعث الإيمان بالله: إنها شعور بالجهل إزاء المشاكل الكبرى، وتطلع إلى حلها، واتباع الحل الذى يأتى من الوحى الصحيح.

وفى المقابل فإن خلاصة القول فى بواعث الإلحاد: أنها شعور بالجهل إزاء المشاكل الكبرى، وتطلع إلى حلها، وابتداع الحل من مصدر غير الوحى الصحيح.

وإذن فمركز الدائرة فى التفرقة بين الإيمان بالله ورسوله وبين الإلحاد هو عنصر الاتباع لله ورسوله نجده فى جانب الإيمان، وعنصر الابتداع والغرور والاستقلال الكاذب وبعبارة أدق الاتباع لغير الله... نجده فى جانب الإلحاد.

أهداف الإلحاد:

من الناحية السلبية تتخلص أهداف الإلحاد فى أمرين:

١ - إنكار الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

٢ - إنكار الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم.

أما من الناحية الوجودية فتتلخص أهدافه فى:

نصب أديان وضعية مستمدة من الإنسان لا من الوحى. وهذا ما كشف عن القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾.

وتتوافر لهذه الأديان الوضعية (الإلحادية) الخصائص الرئيسية التى للدين بصفة عامة، والتى أنكر الإلحاد الدين من أجلها، وهذا يعنى أن الإلحاد المعاصر - وهو يهاجم الدين لم يفعل إلا أن وقع فى التناقض، واستبدل دينا بدين.

استبدل بالدين الصادر من الوحى (من الله الحق) دينا صادرا من الإنسان. وهذا فى حد ذاته كاف فى نقض الإلحاد المعاصر لأن فيه فضحا للكذب والدجل والتناقض الذى ينطوى عليه موقفه من إنكار الدين.

وسائل الإلحاد: الغزو الثقافى:

لا شك أن للإلحاد وسائله الكثيرة، فهو باعتباره عملا شيطانيا له فى نفس الإنسان مداخل الشيطان، وهو باعتباره فعلا إنسانيا له فى نفس الإنسان غرور الإنسان وطغيان الإنسان ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾.

ولكننا فى هذه الدراسة بصدد إلقاء الضوء على الوسائل "العصرية" فى: "الغزو الثقافى".

الغزو الثقافى اليوم ينفذ من خلال الأبواب الحديدية المغلقة، ويتسلق من فوق الأسوار الصلبة الشاهقة، ويمر من تحت أنظار الرقباء، ويتساقط مع موجات الكهرباء.

وهو مع ذلك يتحرك وفق مخططات مدروسة، يعمل فيها: العسكريون والعلماء، والساسة، والاقتصاديون، والمنظرون، والإعلاميون، ورجال الدين. وتخدمها أحدث أجهزة الاتصال، وتستغلها أعتى القوى الدولية. والغزو الثقافى اليوم يمثل قوة شديدة الخطر لم يبلغها على هذا النحو على مدار التاريخ.

والذين لا يدركون هذه الخطورة الاستثنائية يعرضون أنفسهم لخطر الإبادة: جسديا ومعنويا.

والحضارة الأوربية المعاصرة تملك أدوات هذا الغزو، كما تملك فلسفته وأهدافه.

والغزو الثقافى يتوجه أول ما يتوجه إلى العقيدة: ليزيفها، أو ينقص منها، أو يزيد عليها، أو يبدلها، أو يعيد تركيبها.

ثم يتوجه إلى العبادة: ليسخفها، أو يهون من شأنها، أو يقلل من تأثيرها، أو يضيف إليها، أو يساوى بينها وبين عبادات مبتدعة.

ثم يتوجه إلى منظومة القيم: ليلغى بعضها، ويفرغ بعضها من محتواه، ويزرع فى بعضها محتوى جديدا، ويعيد ترتيب أولوياتها.

ثم يتوجه إلى العادات والتقاليد: فى أسلوب الفرح، وفى أسلوب الحزن، وفى أسلوب الرضا، وفى أسلوب الغضب، وفى شكل الزى، وفى طريقة الحديث، وفى عادات الأكل، والنوم والتزاور.. الخ.

إنه بعبارة حاسمة: يقتحم الشخصية.. شخصية الفرد، وشخصية المجتمع.

أثر الغزو الثقافى:

وهنا يظهر "أثر الغزو الثقافى" فهو مع كونه وسيلة من الوسائل التى يلجأ إليها

دعاة الإلحاد بوجه خاص له أثره الخاص: إنه اقتحام للشخصية: وهو اقتحام يستهدف تغيير هذه الشخصية لحساب الثقافة الغازية، والنتيجة التى يسفر عنها هذا التغيير: إما عبودية، وإما ضياع: عبودية النموذج الثقافى القديم للنموذج الثقافى الجديد، أو ضياع النموذج الثقافى القديم بوجه عام، والشىء المستحيل هو أن ينقلب النموذج القديم إلى نسخة من النموذج الجديد.

ذلك أشبه بمحاولتك تغيير بكر ليكون زيدا، فأولا يستحيل أن يكون بكر زيدا، وثانيا إما أن يصبح بكر ألعوبة فى يد زيد، وإما أن تتمزق شخصية بكر لتصبح فى حكم الضياع.

إن الأمر هنا يصبح كما يقول المفكر الإنجليزى ت. س. إليوت فى شأن المجتمع الأوروبى "إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا، وعندئذ يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد، ولن تستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة، يجب أن تنتظر حتى ينمو العشب ليغزو الضأن، ليعطى الصوف الذى ستصنع منه سترتك الجديدة، ويجب أن نمر بقرون كثيرة من الهمجية، ولن نعيش إذن لنرى الثقافة الجديدة؛ لا نحن ولا أحفاد أحفادنا، ولو عشنا لما سعد بها واحد منها"[1].

رد فعل الأمة الإسلامية على الغزو الثقافى:

والسؤال الآن: ماذا كان رد فعل الأمة الإسلامية على هذا الغزو؟

يمكننا أن نقول باختصار إن رد الفعل هذا تراوح بين درجات ثلاث:[2]

(أ) الدرجة الأولى: يمكن أن نطلق عليها درجة "الانبهار" أو التشكيك، والمقصود بها أن كثيرين من الذين فتحوا أعينهم على ضوء هذا الغزو أصابهم "إعجاب الافتتان بحضارة الغزاة واعتقدوا أن لا بعث للأمة الإسلامية إلا بأن

---

(١) ملاحظات نحو تعريف الثقافة، ترجمة الدكتور شكرى محمد عياد نشر وزارة الثقافة والارشاد القومى.

(٢) أنظر كتاب "محاضرات فى الفكر والثقافة الإسلامية" للأستاذ الدكتور عنان زرزور.

تحذو حذو أوربا حذو النعل بالنعل، وهم لأنهم تلقنوا أن أوربا لم تنهض إلا "بالعلمانية" واستبعاد الدين من مجال التوجيه فى الحياة الدنيا، أو إسقاط الدين بالكلية اخذوا يبشرون بالعلمانية فى المجتمع الإسلامى ليمكن لهذا المجتمع – حسب ظنهم – أن يضع أقدامه على عتبات التقدم "الأوربى" وهم فى هذا كله يملكهم الشك فى صلاحية الإسلام للاستمرار.

(ب) الدرجة الثانية: يمكن أن نطلق عليها درجة "الدفاع" والمقصود بها أن كثيرين من المسلمين الذين ساءهم حال الأمة الإسلامية ولم يتخلصوا من الإعجاب الشديد بما عليه حضارة الغزاة، أخذوا يبحثون عوامل النهضة فى الحضارة الأوروبية، ويقررون أصولها فى الإسلام، دفاعا – فى ظنهم – عن الإسلام.

فإذا كانت الديمقراطية من هذه العوامل تحدثوا عن "الديمقراطية" الإسلامية "وإذا كانت الاشتراكية تحدثوا عن" الاشتراكية الإسلامية "وإذا كانت المساواة بين الرجل والمرأة تحدثوا عن" حقوق المرأة فى الإسلام "بل لقد بلغ الأمر ببعضهم أن تحدثوا عما يسمونه "علمانية الإسلام" وهم فى هذا كله يملكهم التوجه الأساسى إلى عناصر الثقافة الأوربية، ولكنهم يتماسكون فى موقفهم إزاء الثقافة الإسلامية فلا يفرطون فيها – شأن من فقدوا رءوسهم بالانبهار – ويظنون أنهم يدافعون عنها، ومع ذلك فهم لا يضعون الثقافة الإسلامية فى وضعها الصحيح، لأنهم بهذا المنهج يغتصبونها لحساب الثقافة الغازية، إذ يجعلون منها مرآة لها، ونمطا من أنماطها، ويقضون على اصالتها الذاتية:

(ج) درجة "الذاتية" أو البحث عن "الأصول" وهنا نجد طائفة من المفكرين الإسلاميين، الذين ساءهم حال الأمة الإسلامية ولم يأخذهم الإعجاب "الشديد" بحضارة الغزاة، وإنما نظروا إليها نظرة نقدية، فوجدوا فيها ما ينفع وما يضر، فتوجهوا إلى البحث عن أصول الثقافة الإسلامية باعتبارها الدافع الحقيقى للنهضة، ليكشفوا عنها الغبار، وليقدموها فى أصالتها الذاتية، وليجعلوها مقياسا يقيسون

عليه حضارة الغرب، فما كان متفقا من هذه الحضارة مع أصول الإسلام شجعوا على الأخذ به، وما كان منها غير متفق نهوا عنه، وهم بين هذا وذاك حريصون على إظهار حقيقة الإسلام ودوره فى بناء الحياة، رضى الغزاة عن ذلك أو سخطوا، وهنا نجد الحديث عن النظام السياسى فى الإسلام، وأنه نظام خاص يبرأ من الدكتاتورية والديمقراطية على السواء، والحديث عن النظام الاقتصادى فى الإسلام وأنه نظام خاص كذلك يبرأ من الإقطاع والرأسمالية والاحتكار والاشتراكية والشيوعية جميعا، والحديث عن العلاقة بين الدين والعلم وأنه فى الثقافة الإسلامية لا يتبع الدين العلم، بقدر ما أنه لا يتبع العلم رجال الدين.. الخ.